# مستويات القراءة ومهاراتها في ضوء التفكير البلاغي

إعداد

**د / سعود حامد الصاعدي**

رئيس قسم البلاغة والنقد بجامعة أم القرى

**مقدمة:**

يهدف هذا البحث إلى استنباط منهج للقراءة باعتبارها نشاطا ثقافيا يفتقر إلى مهارات وقدرات قرائية تتعلق بالقارئ و تفاعله مع المقروء - أيا كان هذا المقروء، وباعتبارها، أيضا، آلية من آليات النقد ، وهذا يتطلب النظر إلى القراءة من جهة علاقتها بالنص المقروء وما يترتب على ذلك من مستويات القراءة التي سنرصدها في ضوء التفكير البلاغي، وذلك انطلاقا من الأساس البلاغي المعروف في العلاقة بين المتكلم والمخاطب والسياق الذي تظهر أهميته عند البلاغيين بما يسمى مراعاة مقتضى الحال.

كما يحاول البحث الوصول إلى طريقة في التدريس تتناغم مع مستويات القراءة وتلقي النص بناء على التدرج في تلقي المعرفة بشكل عام وتلقي النص بشكل خاص و ذلك مراعاة لطبيعة الأشياء في نموها واستجابة لفطرة النفس في الانتقال من الإجمال إلى التفصيل، ومن البسيط إلى المركب ، وبناء على هذا فقد حاول الباحث تصنيف المهارات تصنيفا هرميا ليتناسب مع خطة التدريس من جهة، وتحليل النص وفقا لعلوم البلاغة الثلاثة من جهة ثانية.

وارتكز البحث على محاور عدة بدأت بتصور منهجي ينطلق من حديث بدء الوحي، وقد استلهم الباحث من هذا الحديث أساسين للقراءة:

١ ـ الجانب المعرفي: و يختص بالتحصيل و التكوين المعرفي.

٢ ـ الجانب الإجرائي: و يختص بالجانب المهاري.

وعلى هذين الأساسين تم عرض أفكار البحث، وتصنيف مستويات القراءة والمهارات القرائية، وطرح رؤية خاصة بالباحث تتعلق بترتيب مستويات المواد في خطة الطالب الدراسية، ومستويات تلقي النص وتحليله بلاغيا بدءا بعلم البديع، مرورا بعلم البيان، وانتهاء بعلم المعاني، وذلك ما أداه إلى تصنيف التلقي إلى ثلاثة

أنواع تتناسب مع التنظيم الهرمي المقلوب لعلوم البلاغة حسب رؤية الباحث وهي كالتالي: التلقي السمعي، والتلقي البصري، والتلقي الفكري .

**التصوّر المنهجي:**

في البدء تنطلق رؤية هذا البحث من تصوّر يرتكز على ثلاثية القراءة في مستوياتها استلهمناه من حديث بدء الوحي فيما روته عائشة رضي الله عنها وقد جاء في الحديث أن رسول الله صلى الله عليه و سلم " جاءه الحق و هو في غار حراء فجاءه الملك فقال: اقرأ . قال: ما أنا بقارئ . قال : فأخذني فغطني . حتى بلغ مني الجهد ، ثم أرسلني ، فقال : اقرأ . قلت: ما أنا بقارئ . فأخذني فغطني الثانية، حتى بلغ مني الجهد، ثم أرسلني فقال : اقرأ . فقلت : ما أنا بقارئ. فأخذني فغطني الثالثة ثم أرسلني . فقال : {اقرأ باسم ربك الذي خلق (١) خلق الإنسان من علق (٢) اقرأ وربك الأكرم } [1] ، ١-٣ : العلق ، وفي رواية أخرى إلى قوله تعالى: {علم الإنسان ما لم يعلم} ، ٥ : العلق ، وفيه حديث عن أبي موسى الأشعري وهو الذي قاله أكثر المفسرين من السلف والخلف [2] .

وكان داعي الاستلهام هو أن الحديث يتعلق بالقراءة بوصفها مفتاحا للعلم والمعرفة، وهي، في هذا الحديث، مفتاح لبدء الوحي الذي هو أساس المعارف وأهمها فيما يخص الوجود.

فها هنا موقف يمكن أن نستوحي منه منهجا في القراءة وبيان مستوياتها من جانبين: جانب معرفي ، جانب إجرائي، وكلا الجانبين يرتكز على ما تستبطنه من الآيات الكريمة ولاسيما الجانب المعرفي . اما الجانب الاجرائي فسيرتكز أكثر على تأسيس بلاغي وذلك في ضوء تصنيف الخبر الى ثلاثة أضرب كما سيأتي.

**أ – الجانب المعرفي للقراءة :**

نلحظ أن فعل القراءة، في الآيات الكريمة، ورد مقرونا بالخلق، وتحديدا بتكوين الإنسان، وفي هذا التجاور نتلمس العلاقة الوثيقة بين تكوين الإنسان خلقيا وتكوينه معرفيا وثقافيا ، فكما أن شرارة الخلق تكون في النطفة التي تتخلق لتصبح بعد أطوار عدة خلقا آخر ، فكذلك كلمة "اقرأ" : فهي بمثابة

نطفة التكوين المعرفي والثقافي للإنسان، وقد ذكر ابن عاشور أن هذا الاقتران " فيه إشارة إلى أن خلق الإنسان من علق ثم مصيره إلى كمال أشده هو خلق ينطوي على قوى كامنة وقابليات عظيمة أقصاها قابلية العلم والكتابة "(٣).

وفي الحديث نلحظ أن جبريل عليه السلام كرر فعل القراءة ثلاثا بما يشير إلى أنه فعل ذو أهمية في تلقي العلم والمعرفة بشكل عام ، و تلقي الوحي بشكل خاص، فجاء بعد الثالثة نوع المقروء وهو، هنا، أول ما نزل من القرآن كما هو نص الحديث السابق ، وكأن تكرار الفعل يشير إلى أهمية القراءة المتدبرة، التي تتوسل بالتكرار والإعادة إلى أن تصل إلى أسرار النص المقروء .

وترتكز أهمية القراءة على أنها فعل ونشاط معرفي كوني، إذ القراءة في أساسها فك علامات المقروء، سواء كان نصا مكتوبا، أم كان غير ذلك، و قد ذكر الجاحظ أصناف الدلالات الخمسة وهي : " اللفظ، ثم الإشارة ، ثم العقد ، ثم الخط، ثم الحال التي تسمى نصبة "(٤) وأبان أن " لكل واحد من هذه الخمسة صورة بائنة من صورة صاحبتها، وحلية مخالفة لحلية أختها ، وهي التي تكشف لك عن أعيان المعاني في الجملة، ثم عن حقائقها في التفسير "(٥).

وعلى هذا فالقراءة باعتبارها فكا لرموز المقروء وتفسيرا لمعانيه تأخذ معنى أوسع من معناها المتعلق بالنص المكتوب، ويمكن النظر إليها بهذا الاعتبار من جهتين:

**١ ـ قراءة العلامات الكونية:**

وهي، بهذا الاعتبار، تتسع لتشمل كل الدلائل الناطقة و الصامتة، يقول الجاحظ : " فموضوع الجسم ونصبته دليل على ما فيه وداعية إليه ومنبهة عليه، فالجماد الأبكم الأخرس من هذا الوجه، قد شارك في البيان الإنسان الحي الناطق، فمن جعل أقسام البيان خمسة فقد ذهب أيضا مذهبا له جواز في اللغة "(٦).

وفقا لهذا التصور يمكن النظر إلى العالم من حولنا باعتباره نصا لغويا له علاماته ودلالاته " فالأجسام الخرس الصامتة ناطقة من جهة الدلالة، ومعربة من جهة صحة الشهادة، على أن الذي فيها من التدبير والحكمة مخبر لمن استخبره ، وناطق لم استنطقه "(٧).

وبذلك يكون رصد معالم الكون و تأمل الشواهد المنصوبة قراءة كونية تتفاعل مع الكون والنشاط والسلوك الإنساني كما يتفاعل القارئ مع النص المكتوب؛" فعالم الفلك يقرأ في السماء النجوم التي اندثرت منذ زمن بعيد مضى ويقرأ المهندسون المعماريون طبيعة قطعة الأرض. ويقرأ الصيادون و الباحثون الطبيعيون آثار الحيوانات في الغابة ويتقفون آثارها ..... ، ويقرأ حائكو السجاد العينات المتشابكة للسجادة التي صنعوها . .... ، ويقرأ الآباء في وجوه اطفالهم علامات السعادة أو الخوف أو الاندهاش. كل هؤلاء يشاطرون قراء الكتب ناحية تتمثل في معرفة العلامات وتزويدها بالمعاني "[٨].

وبالعودة إلى حديث بدء الوحي نجد أنه عليه الصلاة والسلام بدا بالتحنث في غار حراء. والتحنث هو التعبد وما من شك أنه ينطوي على تأمل في الكون وقراءة على شواهده الدالة على الخالق سبحانه.

٢ ـ قراءة العلامات الكتابية:

وهي القراءة الخاصة بفك رموز الحروف التي تستند الى "مجموعة كبيرة من العلامات التي يقدمها العالم المحيط "[٩]، والحروف المكتوبة بهذا الاعتبار أجسام صامتة ناطقة من جهة الدلالة على المعاني التي نصبت لها ، كما أن العالم المنصوبة أمامنا علامات في منظومة لغوية تحتاج إلى قارئ له مهارات خاصة يحقق بها فعل القراءة . فالقارئ أيضا هو الشخص الذي يستطيع أن يعطي معاني لمنظومة من العلامات من أجل فك رموزها فيما بعد . جميعنا يقرأ نفسه والعالم المحيط بنا من أجل أن ندرك من نحن ؟ ، أين نحن موجودون؟ ، إننا نقرأ كي نفهم، أو من أجل أن نفهم، او من أجل التوصل إلى الفهم . إننا لا نستطيع فعل أي أمر مغاير؛ القراءة مثل التنفس؛ إنها وظيفة حياتية اساسية "[١٠].

من هنا يمكن القول إن " القراءة تسبق الكتابة؛ فمن يريد أن يكتب عليه أن يعرف نظام العلامات التي أقرها المجتمع قبل أن يسطر أول كلمة على الورق "[١١]. وعلى هذا الاعتبار يمكن أن نشير بدءا إلى أن التلقي في أول أمره يرتكز على المشافهة والاستماع التي تتناسب مع القراءة بوصفها نشاطا يحصل بالتلقين والإملاء والتلاوة. فالقارئ بهذا المعنى هو من يتلو ما يملى عليه و يعيده .

وهذا المعنى متحقق في حديث بدء الوحي والأمر بالقراءة، وقد رتبت الآيات في سورة العلق الكتابة على القراءة وليس العكس، إذ سبقت القراءة أولا، ثم الكتابة في ما أشارت إليه الآية الكريمة في قوله تعالى: {الذي علم بالقلم} العلق:٤.

وقد مر مفهوم القراءة بأطوار عدة، حيث كان ينحصر في الجهر بالكلمات المكتوبة، أي المستوى الشفهي ، ثم انتقل إلى أن أصبح نشاطا عقليا يتجاوز التعرف إلى الفهم وترجمة الرموز الحرفية إلى معان وأفكار ، ثم صارت القراءة تعني، إضافة إلى ما سبق، اتخاذ موقف فكري مما يقرأ، يتفاعل فيه القارئ مع النص المقروء، ثم تطور مفهوم القراءة إلى أن أصبح يتمثل في الاستفادة العملية من المادة المقروءة، بحيث يوظف القارئ ما قرأ في إنتاج نص جديد، أو يوظف القراءة في حياته العملية من مشكلات ومواقف حيوية[١٢].

فنلحظ مما سبق أن العلاقة بين القارئ والمقروء علاقة وثيقة الصلة، إذ هي تتجاوز، في مستوياتها العليا، علاقة التواصل بالفهم والتذوق، إلى علاقة التفاعل بالتحليل والتأويل والاندماج.

وعلى هذا فالقراءة تتعلق بمستويين، كلاهما ورد في سياق الآيات الكريمة:

١ ـ المستوى الشفهي: وهو مستوى يتعلق بالتلاوة، والقراءة بصوت مسموع، كما يتعلق بالمستوى الصوتي للغة ، وهذا مستوى من مستويات القراءة، إذ العلم بالقراءة، كما يرى ابن عاشور " يحصل بوسائل أخرى مثل الإملاء والتلقين و الإلهام وقد علم الله آدم الأسماء كلها ولم يكن آدم قارئا "[١٣].

٢ – المستوى الكتابي: ويتميز هذا المستوى في أنه يتيح فرصة للقراءة الصامتة، والمنفردة، ويحتفظ بالنص لقراء المستقبل من خلال تجاوز الزمن الحاضر عبر ذاكرة الكتابة.

ومن هنا يأتي ارتباط القراءة بالكتابة من جهة، وارتباط القارئ بالنص المقروء من جهة ثانية؛ ذلك أن كل النصوص المكتوبة مضطرة بطريقة ما، مباشرة أو غير مباشرة، إلى الارتباط بعالم الصوت، الموطن الطبيعي للغة كي تعطي معانيها. وقراءة النص تعني تحويله إلى صوت، جهوريا كان أو في الخاطر، مقطعا مقطعا في القراءة

البطيئة، أو اختزالا في القراءة السريعة الشائعة في الثقافات ذات التكنولوجيا العالية ، فالكتابة لا يمكن أبدا أن تستغني عن الشفاهية"(١٤).

فنلحظ أن آيات التنزيل قد حوت متنا، يمكن اعتباره متن المعرفة ، فهو ينطوي على كل ما يتعلق بالتكوين والتحصيل المعرفي . بدءا بمفتاح المعرفة المتمثل في فعل القراءة بمستوييه: الشفهي و الكتابي . وانتهاء بالعلم المخبوء الذي تشير إليه الآية الكريمة {علم الإنسان ما لم يعلم}(العلق:٥)، وكان كل ما ينتمي للمعرفة إنما هو من شروح هذا المتن واستنباطاته.

وقد ذكر ابن عاشور تعليقا على هذه الآية ما هو جدير بالتأمل، حيث أشار إلى أن "تعريف الإنسان يجوز أن يكون تعريف الجنس فيكون ارتقاء في الإعلام بما قدره الله تعالى من تعليم الإنسان بتعميم التعليم بعد تخصيص التعليم بالقلم"(١٥). كما أشار إلى طرق التلقي المعرفي والتحصيل العلمي، نوجزها فيما يلي باختصار:

١ – الأخذ عن الغير بالمراجعة والمطالعة وطريقهما الكتابة وقراءة الكتب.

٢ – التلقي من الأفواه بالدرس والإملاء.

٣ – ما تنقدح به العقول من المستنبطات والمخترعات . وهذان داخلان تحت قوله تعالى: {علم الإنسان ما لم يعلم}(العلق:٥).(١٦)

وفيما إذا نقلنا هذا التصور إلى التحصيل العلمي و المعرفي على مقاعد الدراسة يمكن القول إن القراءة تأخذ بعدين ينتجان عن هذين المستويين الشفهي والكتابي، ويتطلبان مهارات قرائية خاصة بكل مستوى ، فالمستوى الشفهي ينتج قراءة تتطلب في البدء: الحفظ، فالفهم، فالاستيعاب، وذلك حسب تدرج هذه المهارات، وفي ذلك ينقل ابن جني عن أبي علي الفارسي أن أبا حاتم قال لهم: "إذا لم تفهموا كلامي فاحفظوه، فإنكم إذا حفظتموه فهمتموه"(١٧)، وذلك أن مهارة الحفظ تتناسب مع المستوى الشفهي.

أما المستوى الكتابي فإنه يتيح فرصة التأمل والمراجعة ، و لذلك يمكن أن تتحقق من خلاله مهارتا: التذوق و التأويل، وتحت مهارة التذوق تندرج مهارات عدة كالتحليل والاستنتاج ، أما تحت مهارة التأويل فتندرج مهارات كالاستنباط والإنتاج. وبذلك يمكن ترتيب المهارات القرائية حسب المستويات في الخطاطة الآتية :

١ ـ المستوى الشفاهي ⇦ الحفظ ⇦ الفهم ⇦ الاستيعاب

٢ ـ المستوى الكتابي : أ- التذوق ← التحليل ← الاستنتاج

ب- التأويل ← الاستنباط ← الإنتاج

فنلحظ أن المهارات المحورية والأساسية التي تتطلبها القراءة هي : الفهم، والتذوق ، والتأويل ، مع ملاحظة أن الحفظ ، بحسب ما ذكر أبو حاتم ، وسيلة للفهم، وليس مهارة مطلوبة لذاتها ، أي أنها أداة من أدوات تخزين المعرفة .

كما أن ثمة فرقا دقيقا بين التحليل والتأويل ، إذ التحليل فعل من أفعال التذوق، وهو درجة أقل من درجة التأويل، فالتحليل تنتج عنه مهارة الاستنتاج، في حين تنتج عن التأويل مهارة الاستنباط، وبين الاستنتاج و الاستنباط فرق في الدرجة، فالاستنتاج يختص بتحصيل ما يدل عليه منطوق المقروء أي ما ينتجه النص، أما الاستنباط فيختص بتحصيل ما يدل عليه مفهوم المقروء، وذلك أن معنى استنبط مأخوذ من استخراج الماء من أعماق الأرض ، فهو خاص باستخراج معرفة في أعماق النص.

ولتوضيح هذا الفرق الدقيق يمكن الإشارة إلى دلالة "إنما" في مستوياتها الثلاثة، من خلال قوله تعالى {إنما يتذكر أولوا الألباب}الرعد:١٩، ففي المستوى الأول تدل على قصر التذكر على أولى الألباب ، وفي المستوى الثاني تدل على ان هذا الأمر مما لا ينكر ولا يدفع ، وفي المستوى الثالث تدل على التعريض بالكفار وأنهم لا عقول لهم يهتدون بها[١٨] .

وعلى هذا يمكن القول بأن الدلالة الأولى تفتقر إلى فهم واستيعاب، والدلالة الثانية تفتقر إلى تذوق و استنتاج ، و الدلالة الثالثة تفتقر إلى تأويل واستنباط، ومعنى هذا أن مهارة الاستنباط تقف في أعلى رأس الهرم المهاري للتكوين المعرفي فيما يبدأ الهرم بمهارة الحفظ.

أما مهارة الإنتاج[١٩] فتأتي بوصفها مكملة لدائرة التداولية بين القراءة المنتجة والكتابة ، حيث يعاد إنتاج النص المقروء في نص آخر، وهكذا تستمر عملية إنتاج المعرفة في حركة مستمرة تبدأ بالقراءة وتنتهي بالكتابة لا لتقف عندها ، وإنما لتبدأ في قراءة جديدة، وهكذا دواليك ، ويمكن رسم خطاطة هرمية للمهارات حسب تدرجها في الشكل الآتي:

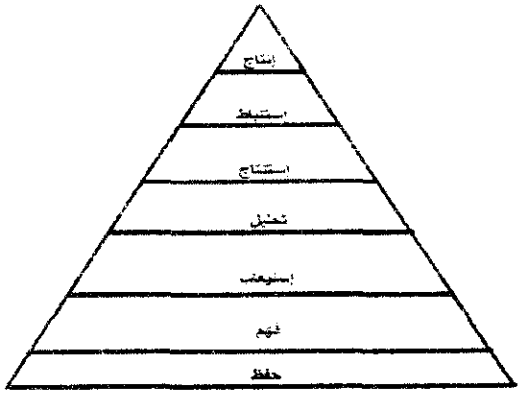


ولبيان تراتبية هذه المهارات وفقا للقراءة المنتجة فإن القارئ يبدأ فيحفظ المقروء ليفهمه أولا، ثم يستوعبه ، ثم يقوم بعلمية التحليل، ثم يستنتج أفكاره، ثم يستنبط منه دلالات عميقة، ثم تتحول هذه العملية القرائية إلى إنتاج معرفي.

**الأثر التعليمي للجانب المعرفي في الدرس البلاغي**

بناء على هذا الجانب يقترح الباحث ، فيما يخص العملية التعليمية، أن يتم تصنيف مستويات التدريس في الخطة الدراسية وفقا للترتيب الهرمي للمهارات، بحيث تتحقق من خلال المستوى الأول مهارة الحفظ والفهم والاستيعاب، وفي المستوى الثاني مهارة التحليل والاستنتاج، وفي المستوى الثالث مهارة الاستنباط ، وفي المستوى الرابع مهارة الانتاج، وبذلك يتناغم هذا التصنيف مع التكوين والنموّ المعرفي، ولهذا يقترح الباحث ، فيما يخص الخطة الدراسية لقسم البلاغة مثلا، مادة لحفظ النصوص العالية تتعلق بالجانبين: العلمي والإبداعي، بحيث يتم تصنيفها إلى مستويين:نصوص للعلماء في هذا الفن، كالجاحظ، وعبد القاهر، وغيرهم، ونصوص للبلغاء من الرعيل الأول لتربية الذائقة على الكلام العالي.

كما يقترح تأخير مادة مبادئ التحرير البلاغي من السنة الأولى إلى السنة الرابعة مع تغيير الاسم إلى "التحرير البلاغي"، لتكون ثمرة للدراسة البلاغية، ولتتوافق مع ترتيب الهرم المهاري في التكوين المعرفي، حيث يأتي الإنتاج في رأس الهرم ، وهذا يمكّن الطالب من تطبيق ما درسه في المستويات السابقة وإنتاجه في نصوص علمية وإبداعية.

**ب – الجانب الإجرائي للقراءة:**

فيما يخص الجانب الاجرائي يمكن تصنيف القراءة إلى ثلاثة مستويات تستند على تلقي الخبر وفقا للتفكير البلاغي ، وأساس ذلك " ما روي عن ابن الأنباري أنه قال: ركب الكنديّ المتفلسف إلى أبي العباس وقال له: إني لأجد في كلام العرب حشوا ، فقال له أبو العباس: في أيّ موضع وجدت ذلك ؟ فقال أجد العرب يقولون: " عبد الله قائم "، ثم يقولون: " إنّ عبد الله قائم " ، ثم يقولون : " إن عبد الله لقائم"، فالألفاظ متكررة والمعنى واحد، فقال أبو العباس: بل المعاني مختلفة لاختلاف الألفاظ ، فقولهم : " عبد الله قائم " إخبارٌ عن قيامه ، و قولهم: "إنّ عبد الله قائم " جوابٌ عن سؤال سائل ، وقولهم: " إن عبد الله لقائم " جوابٌ عن إنكار منكر قيامه، فقد تكررت الألفاظ لتكرّر المعاني، قال فما أحار المتفلسف جوابا"[٢٠].

فمن هذا النص أخذ البلاغيون أغراض الخبر الثلاثة وشرعوا في توسيع الرؤية حيث نظروا إلى علاقة المخاطب بالخبر من جهات ثلاث : الابتداء ، والطلب، والإنكار، وهذا فيما إذا كان الكلام على مقتضى الظاهر، ثم فرّعوا عن ذلك أغراضا أخرى حين يخرج الكلام على خلاف مقتضى الظاهر فيجعل غير السائل كالسائل، وغير المنكر كالمنكر، والمنكر كغير المنكر[٢١].

وهكذا اتسع هذا النص حتى صار منهجا بلاغيا في التلقي يمكن وصمه بالقراءة البلاغية للكلام من زاوية المخاطب بوصفه قارئا، غير أنه منهج يشترط وعي المتكلم بأدوات الخطاب كما هو واضح في النص أعلاه ، حيث أسند الكلام إلى العرب أهل الفصاحة والبيان، فيما كان القارئ في هذا النص هو أبا العباس المبرد البصير بلغة الخطاب وبشروطه البلاغية.

ونلحظ على هذا النص أنه يتعامل مع المتلقي بوصفه مخاطبا بناء على شفهية الخطاب، غير أنه يمتد ، فيما بعد، بحسب البلاغيين، ليصبح المخاطب قارئا ، وهذه نقلة من المستوى الشفهي إلى المستوى الكتابي، ومن القراءة بوصفها تلاوة للمقروء إلى القراءة بوصفها نشاطا ثقافيا مخصوصا بفك رموز المقروء، وذلك على اعتبار " أن عملية القراءة، على غرار عملية التفكير، مرتبطة بالقدرة على فهم

اللغة وقراءتها واستخدامها تلك المجموعة من الكلمات التي تتكون منها النصوص ويتكون منها التفكير.[٢٢]

وفيما يلي بيان بمستويات القراءة ومهاراتها، وفقا لهذا النص البلاغي التأسيسي، وذلك من جهتين:

**١ ـ جهة القارئ:**

يعنى هذا البحث بتوسيع النظر في المنهج البلاغي في تلقي الجملة الخبرية لتشمل القراءة الإبداعية للنصوص المختلفة وذلك في ظل الانتقال من الجملة الخبرية إلى النص المقروء في تكوينه من جمل ووحدات مترابطة تتمثل في السياق اللغوي مع عدم إغفال السياق الخارجي الذي يتمثل في مراعاة مقتضى الحال والمقام كما هو معروف عند البلاغيين[٢٣]، وبذلك يمكن النظر إلى السياق من جهتين:

أ – السياق الداخلي: ويتعلق بلغة النص ، وذلك بمراعاة العلاقات بين الكلمات، والجمل، والوحدات النصية، للوصول إلى قراءة نافذة إلى أعماق النص.

ب – السياق الخارجي: وله جانبان، جانب يتعلق بالكاتب أو منتج النص، وجانب يتعلق بقارئ النص، ويسمى ما يتعلق بالكاتب سياق عصر النص، وما يتعلق بالقارئ سياق عصر القراءة.[٢٤]

وكلا السياقين مهم للقراءة بجميع مستوياتها، ، فإلى جانب الدور الذي يمكن أن يقوم به السياق الداخلي للنص في تحديد نوعية التفاعل مع النص وتوليد الدلالات المتباينة يلعب السياق الخارجي بما في ذلك عصر سياق النص وظروف عصر الكتابة ، ثم أخيرا سياق عصر القراءة، دورا أساسيا في مسار وكيفية تأويل النصوص.[٢٥]

وتتطلب مواجهة النص من القارئ مهارات قرائية تتأسس على أضرب الخبر الثلاثة المذكورة، بحيث يحتاج القارئ ثلاث قراءات تحتوي كل قراءة على مهارات تتناسب مع المستوى القرائي الذي هو بصدده ، ويمكن النظر إليها **كالتالي**:

أ ـ القراءة الأولى: وتوازي حالة خالي الذهن، وهو هنا يتمثل في القارئ الذي يتلقى الكتاب/ العمل المقروء لأول مرة .

ب ـ والقراءة الثانية: توازي حالة السائل، وهو قارئ نشأت بينه وبين الكتاب علاقة سابقة لكنه يحضر للمرة الثانية لتثبيت معلومات معرفية احتواها الكتاب.

ج ـ أما القراءة الثالثة: فتوازي حالة المنكر، وهو قارئ مختلف عن سابقيه لأنه يحضر للكتاب بثقافة الأسئلة التي يطرحها في شكل مساءلة للكتاب أو النص المطروح للقراءة، ويكون هذا القارئ في مستوى القارئ الناقد للنص الأدبي، ذلك القارئ الذي وصفه الدكتور عزت خطاب بأنه " في مستوى عال من الثقافة الفكرية، بحثا عن المتعة الجمالية البحتة، وفي هذه الحالة لا يقنع بالقليل السطحي، إنما يغوص في أعماق العمل، إلى مكنون العمل وجوهره، وقد تنفره أقل سقطة ، أو مجرد الميل إلى الهبوط، لأنه حريص على أن تتكامل للعمل جميع الصفات المميزة، صغيرة كانت أم كبيرة، حتى يقوم بدوره الجمالي الإبداعي "[٢٦] مع عدم اقتصار القارئ في هذا المستوى على المتعة الجمالية فحسب، بل إنه يتجاوزها إلى التذوق والتحليل والمناقشة والحكم على النص المقروء، سواء كانت مادة العمل أدبية أم علمية.

وفيما يلي نقف على المهارات التي يحسن أن تتوفر لكل صنف من هؤلاء القراء على مختلف مستوياتهم، مع ملاحظة أني هنا سأصف كل صنف بما يتناسب وطبيعة القراءة التي يزاولها:

أ – القارئ المتعلم: وهذا القارئ يقابل في التصنيف البلاغي المتلقي خالي الذهن ، فهو بحاجة إلى أن يتلقى ما في الكتاب تلقي التلميذ في حرصه على ما فيه من معارف، ومن المهارات المهمة في حق هذا النوع من القراء: الحفظ ، والفهم، والاستيعاب.

ب – القارئ المعلم: وهذا القارئ يقابل المتلقي السائل المتردد في الخبر ، بحيث يتلقى ما في الكتاب من معرفة مع فحص و مساءلة للتأكد من صحة المعارف التي يحويها الكتاب. وأهم المهارات التي يحسن توفرها في هذا القارئ : القدرة على التذوق والتحليل والاستنتاج.

ج - القارئ الناقد: وهو يقابل المتلقي المنكر، فهو يناقش و يحلل ويفحص فحصا دقيقا كل معرفة يتلقاها في الكتاب المطروح للقراءة، وأهم المهارات التي يحسن توفرها فيه هي: القدرة على التأويل والاستنباط والإنتاج .

ويمكن الإشارة هنا إلى أن القارئ الأول يتناسب مع مستوى الطالب الجامعي في مرحلة البكالوريوس في المستويات الأولى، في حين يتناسب القارئ الثاني مع طالب البكالوريوس في المستويات الأخيرة، أما القارئ الثالث فيتناسب مع طالب الدراسات العليا بوصفه باحثا في مرحلتي الماجستير و الدكتوراه.

**٢ - جهة النص المقروء:**

يمكن استثمار نص المبرد لبيان مستويات القراءة للنص الأدبي وفقا لتصنيف علوم البلاغة الثلاثة، فالنص الأدبي كما هو معلوم نسيج متشابك من المعاني والبيان والبديع ، وتبدو هذه العلوم الثلاثة متداخلة في النص، غير أنه من الملاحظ حسب تعريف البلاغيين لهذه العلوم، فيما استقر عند السكاكي والجمهور مؤخرا، أن علم المعاني يمثل الهيكل البنائي بدءا من الإسناد والتركيب، وعلم البيان يمثل التصوير البياني من تمثيل واستعارة وكناية ، وهو ما وصفه النقاد بالكسوة الفاخرة، وأطلق عليه عبد القاهر مصطلح معنى المعنى، أما البديع فيمثل الحلية التي تبين بها ملامح النص في تشكيله وألوانه وما فيه من تقسيم ومزاوجة وترابط يتمثل في رد الأعجاز على الصدور وتشابه الأطراف إلى آخر هذه الأوصاف التي تظهر على شكل النسيج من خارجه.

وحسبنا أن نقف عند تعريف علم البديع لتظهر لنا هيكلة العلوم البلاغية في النص ، فهو ، كما ورد في التلخيص عند الخطيب ، " علم يعرف به وجوه تحسين الكلام بعد رعاية المطابقة ووضوح الدلالة "[٢٧]، فرعاية المطابقة تختص بالمعاني، ووضوح الدلالة بالبيان، ووجوه تحسين الكلام تختص بعلم البديع، وعلى هذا فالقارئ هنا يفتقر إلى ثلاث قراءات متتاليات:

أ – قراءة أولى: يتلقى فيها الشكل البديعي من ألوان وتقابلات شأنه شأن الناظر إلى لوحة فنية للوهلة الأولى حين تشده الألوان في تناسبها وخطوطها المتوازية و المتداخلة دون النظر إلى الدلالة التي تنطوي عليها أو البناء الذي يشكل العمل

في رؤية متكاملة للمعاني والأفكار التي تتضمنها اللوحة. وإنما يقتصر فيها على المعنى العام الذي تستند عليه نواة العمل.

ب – قراءة ثانية: يتلقى فيها القارئ دلالة الصور من تشبيهات واستعارات وكنايات، وهو في ذلك يتمثل النظرة الثانية لقارئ اللوحة الفنية حين تبدو له دلالة الصورة في اللوحة.

ج – قراءة ثالثة: يتلقى فيها القارئ الروابط والعلاقات في البناء الذي يشكل العمل الأدبي من إسناد وتركيب ووصل وفصل وتقابل بين الجمل إلى أن يصل إلى هيكلة المعاني في بدء تشكلها وما تنطوي عليه من لطائف وأسرار، وهو في ذلك يتمثل النظرة الثالثة لقارئ اللوحة في تأمله الذي يكشف له بناء اللوحة الداخلي وترابط المعاني والأفكار التي تشكل رؤية الفنان من جهة، وتشكل له وحدة الموضوع في اللوحة و دلالاتها الخفية التي لا تظهر إلا بربط مكونات الصور الجزئية في اللوحة بالصورة الكلية و بما يقتضيه الحال بالنسبة للفنان وزمن إنجاز اللوحة مع ما يقتضيه حال القارئ وزمن قراءته للوحة.

فإذا ما عدنا إلى النص البياني يمكن القول إن مستويات القراءة بهذا التصنيف تأتي على هذا الترتيب:

أ – قراءة الفهم: وهي قراءة تهدف إلى المعنى العام، ويأتي فيها التذوق في الدرجة الثانية ، إذ يتلقى القارئ النص لفهم معناه العام أولا، ثم التفاعل مع إيقاعه النغمي وتشكيله البصري اللذين يستندان على التشكيل اللغوي من جناس وطباق ومقابلة إلى آخر أنواع البديع.

ب – قراءة التذوق: وهي قراءة تتجاوز المعنى العام إلى الكشف عن أسرار التراكيب والصور في دلالتها على المعاني اللطيفة.

ج – قراءة التأويل: وهي قراءة تتجاوز المكتوب إلى ما يؤول إليه وتكتشف المعاني الضمنية والجمل التي خلف الجمل ويتم فيها تأويل الصور المجازية والكشف عن الرؤية الكلية لبناء النص في تراكيبه وصوره.

ومما يمكن ملاحظته أن قراءة الفهم تعنى بالمعنى العام ، أو ما يسمى عند عبد القاهر بأصل المعنى، كما تعنى بالشكل الخارجي للنص ، فيما تعنى قراءة التذوق بالتراكيب و لطائف المعاني التي تنطوي عليها، أما قراءة التأويل فتعنى بمعنى المعنى، وهو " الذي يحتاج إلى تأويل يستند للتأمل العقلي "[٢٨] . و" الواقع أن القارئ عندما ينتقل إلى المعنى الثاني يكون قد قام بفعل تأويلي لأنه تجاوز درجة الفهم"[٢٩] وقد عبر عنه عبد القاهر بقوله: " أن تعقل من اللفظ معنى ثم يفضي بك ذلك المعنى إلى معنى آخر، ومدار هذا على الكناية و الاستعارة والتمثيل "[٣٠]

كما تعنى قراءة التأويل، أيضا، بما اصطلح عليه البلاغيون بمخالفة مقتضى الظاهر، وكذلك تنزيل المخاطب خالي الذهن منزلة السائل أو المنكر، أو تنزيل المنكر منزلة غير المنكر.

وعودا على بدء نلحظ أن قراءة الفهم تتناسب مع القارئ المتعلم ، في حين أن قراءة التذوق تتناسب مع القارئ المعلم، أما قراءة التأويل فتتناسب مع القارئ الباحث والناقد.

وعند العودة إلى النص التأسيسي لهذه الدراسة يمكن أن نصنف موقف المتفلسف الكندي في مستوى القارئ المتعلم الذي يبحث عن مستوى من الفهم ، أما أبو العباس المبرد فيمكن تصنيف موقفه في مستوى القارئ المعلم الذي يتذوق الفروق الدقيقة في التعبير، في حين يأتي تنزيل أضرب الخبر الثلاثة حين تخرج على خلاف مقتضى الظاهر كتنزيل المنكر منزلة خالي الذهن وهكذا ، يأتي هذا النوع من التنزيل البلاغي بوصفه تأويلا، وعلى هذا فموقف هذا الصنف يتناسب مع القارئ الناقد الذي يتطلب مستوى عاليا من القراءة يرصد فيها ما يمكن أن يتأول خلافا لمقتضى الظاهر.

**الأثر التعليمي للجانب الإجرائي في الدرس البلاغي:**

يتمثل هذا الأثر في ما يمكن أن نصفه بطريقة الهرم المقلوب: من القارئ إلى الكاتب، إذ يمكن، بناء على ما سبق ، الخروج بتصور في الدراسة البلاغية فيما يخص تحليل النص، وترتيب مستويات علوم البلاغة في خطة الدراسة، فمن الملاحظ أن التنظيم الهرمي لعلوم البلاغة يرتكز على المتكلم/ المنتج، حيث تبدأ

دراسة البلاغة على أساس أنها ترصد أطوار نمو البيان بدءا بالمعنى، أو الفكرة، فاختيار الألفاظ، فالإسناد والتركيب، فالتصوير البياني، إلى أن يكتمل النص بوجوه التحسين. وعلى هذا جاء تعريف علم المعاني أنه : " علم يعرف به أحوال اللفظ العربي التي يطابق بها مقتضى الحال"(٣١) . وجاء تعريف علم البيان أنه : " علم يعرف به إيراد المعنى الواحد بصور مختلفة في وضوح الدلالة "(٣٢) ، أما علم البديع فهو: "علم يعرف به وجوه تحسين الكلام بعد رعاية المطابقة ووضوح الدلالة"(٣٣) ، وهكذا يبدأ البناء الهرمي لعلوم البلاغة وفقا لنمو البيان من جهة المتكلم /المنتج .

ومن غير شك أن البناء الهرمي لعلوم البلاغة بناء يستجيب لفلسفة الوجود والنظام الكوني وطبيعة الأشياء في النمو، فهو نظام بياني في سياق نظام كوني يتناغم مع ما حوله، وهي سمة من سمات التفكير العميق والمنظم.

غير أنه من المهم، في جانب التلقي، الإشارة إلى أن التلقي يبدأ بالإجمال الذي يرتكز على النظر الكلي، ثم ينتقل إلى التفصيل شيئا فشيئا حتى يوغل في الجزئيات التي يتكون منها العمل أو يقوم عليها النظام . فعلماء الفيزياء مثلا لم يصلوا إلى نظرياتهم عن المادة وجزيئياتها إلا بعد أن تجاوزوا النظر الإجمالي إلى الكون وبديع صنعه من نظام قائم على الثنائيات والأضداد إلى أن وصلوا إلى نظرية الانفجار الكوني وإلى أن وراء هذا الكون خالق مبدع أوجد هذا النظام البديع .

وبناء عليه فإن تلقي النص، ولاسيما النص الإبداعي ، ينبغي أن ينطلق من الاتجاه المعاكس لنموه، فيأخذ مسارا عكسيا للبناء الهرمي المألوف لعلوم البلاغة، بحيث يبدأ، فيما يخص المتلقي، سامعا كان أم قارئا، من البديع إلى أن يصل إلى أعماق التراكيب التي تنطوي على المعاني اللطيفة ، وهذا التصور يتطلب ما يسمى بالهرم المقلوب لمستويات الدراسة البلاغية لتكون على هذا النحو: " علم البديع ، علم البيان، علم المعاني "، بحيث يدرس الطلاب وفقا لهذا الترتيب على اعتبار التلقي، وذلك مراعاة لطبيعة النفس، إذ من المعلوم أن النظام المعرفي في التلقي يرتكز على أساسين:

١ ـ الإجمال قبل التفصيل: وذلك ان النفس تدرك إجمالا، ثم تشرع في التفصيل حتى يصل الأمر إلى تفصيل التفصيل، وعلى هذا المنهج بنى عبد القاهر فكرته في دراسة التشبيه وتفضيله[٣٤].

٢ ـ التدرج من الأسهل إلى الأصعب: وهو مبنيٌ على أن الإدراك يبدأ بالسمع ، ثم يتدرج إلى البصر ، ثم ينتقل الأمر من البصر إلى الفكر ، و على هذا الأساس في الترتيب و ردت الآية الكريمة {إن السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مسؤولا} ( الإسراء :٣٦ )، وذلك أن العلوم – كما ذكر الرازي ـ : " مستفادة من الحواس أو من العقول ، أما القسم الأول : فإليه الإشارة بذكر السمع والبصر، فإن الإنسان إذا سمع شيئا أو راه فغنه يرويه ويخبر عنه . وأما القسم الثاني : فهو العلوم المستفادة من العقل و هي قسمان : البديهية و الكسبية ، وإلى العلوم العقلية الإشارة بذكر الفؤاد "[٣٥]

وفي السير وفقا لهذين المبدأين مراعاة واستجابة لفطرة النفس في التلقي . وعلى هذا الأساس يمكن تصنيف التلقي إلى ثلاثة مستويات وترتيبها وفقا للتدرج المذكور:

أ ـ التلقي السمعي : ويتمثل هذا في علم البديع فيما يخص الطبيعة الصوتية والإيقاعية لعلم البديع، حيث الجناس، والسجع، والتقسيم، والموازنة والازدواج، وغيرها من المحسنات اللفظية.

ب ـ التلقي البصري: وله مستويان:

١ ـ المستوى الأول: يتمثل في أشكال البديع البصرية من مشاكلة و جناس وطباق ومقابلة باعتبار التضاد الذي يتولد عن الأخيرين ـ أي الطباق والمقابلة ـ يحمل سمة بصرية تحيل إلى التشكيل اللوني.

٢ ـ المستوى الثاني: ويتمثل في التخييل البصري لتلقي الصور البيانية من تشبيه وتمثيل واستعارة وكناية.

ج ـ التلقي الفكري: وله ثلاثة مستويات:

١ ـ المستوى الأول: يتمثل في أسرار التراكيب من تقديم و تأخير ، وذكر وحذف، و إظهار و اضمار ، وغير ذلك من مسائل علم المعاني.

٢ – المستوى الثاني: يتمثل في تلقي الصور البيانية في دقائقها التركيبية كما في المجاز العقلي الناتج عن لطف النظر في قوله الأعشى:

تجوب له الظلماء عين كأنها زجاجة شرب غير ملأى و لا صفر

و قد وصف عبد القاهر هذا النوع بأنه دقيق المسلك[٣٦]، كما ذكر أن ثمة حسنا يقع فيه الحيف على النظم فيظن أن حسنه قد أتاه من جهة الاستعارة فحسب ، والأمر بخلاف ذلك[٣٧].

٣ ـ المستوى الثالث: يتمثل في تكوين رؤية متكاملة عن النص الأدبي ناتجة عن تكامل علوم البلاغة الثلاثة، وهي رؤية لا تتحقق للطالب إلا إذا تلقى الدروس البلاغية وفقا للترتيب الذي يتناغم مع طبيعة النفس في تلقي المعرفة حين تبدأ بالسمع ، فالبصر، فالفكر.

نماذج تطبيقية:

١ ـ نموذج أول يتعلق بمستويات القراءة الثلاثة :

نختم هذه الفقرة بنص شعري تعاقبت عليه قراءات عدة ، هو الأبيات المشهورة التي تنسب لكثير عزة أو ابن الطثرية ، التي مطلعها " ولما قضينا من منى كل حاجة ... " الأبيات[٣٨] ، وقد جاءت القراءات كالآتي :

أ – القراءة الأولى : و هي قراءة ابن قتيبة في كتابه الشعر والشعراء ، حيث أشار إلى أن هذه الأبيات " أحسن شيء مخارج و مطالع و مقاطع ، وإن نظرت إلى ما تحتها من المعنى وجدته : و لما قطعنا أيام منى ، واستلمنا الأركان، وعالينا إبلنا الأنضاء ، و مضى الناس لا ينتظر الغادي الرائح ، ابتدأنا في الحديث، وسارت المطي في الأبطح "[٣٩].

في هذه القراءة يركز ابن قتيبة على المعنى العام للأبيات ، أو ما يسمى بالمضمون، فهي قراءة ترتكز على الفهم أكثر ، وإن كان فيها جانب يسير من التذوق نتلمسه في قوله " أحسن شيء مخارج ومطالع ومقاطع " وفي تصنيفه لهذه الأبيات في أنها مما حلا لفظه .

ولعلنا نعتذر لابن قتيبة هنا بأنه بإزاء التصنيف لأنواع الشعر ، وبالتالي فهو معنيٌ بالتوضيح والشرح أكثر من عنايته بالتذوق والتأويل . والشرح و التوضيح من مهارات القراءة التعليمية التي تناسب قراءة الفهم والقارئ المتعلم .

ب – القراءة الثانية: ويمكن تصنيف قراءتي ابن جني وعبد القاهر معا ، وذلك في بعض جوانبها بقراءة التذوق من جهة أنهما قاما بتحليل المعاني اللطيفة التي تحتويها التراكيب والصور . ففي قول الشاعر:

وسالت بأعناق المطيّ الأباطح

أشار ابن جني إلى أنه فيه " من الفصاحة ما لا خفاء به "[٤٠] فيما ذكر عبد القاهر أن الشاعر "قال ( بأعناق المطي ) ولم يقل ( بالمطيّ ) لأن السرعة والبطء يظهران غالبا في أعناقها، ويبين أمرها من هواديها وصدورها، وسائر أجزائها تستند إليها في الحركة، وتتبعها في الثقل والخفة . وتعبر عن المرح والنشاط، إذا كانا في أنفسها، بأفاعيل لها خاصة في العنق والرأس، وتدلّ عليهما بشمائل مخصوصة في المقاديم"[٤١] .

ج – القراءة الثالثة: وتمثلها ، أيضا، قراءتا ابن جنّي وعبد القاهر في تأويلهما لقول الشاعر :

أخذنا بأطراف الأحاديث بيننا

حيث اختلفا في تأويل المقصود بهذه العبارة داخل سياق الأبيات الشعرية. فتأويل ابن جني لها مرتبط بالشاعر من جهة، وبما اعتاد عليه الشعراء في هذا الغرض خاصة، أي بالسياق الفني /الشعري، حيث يرى : " أن في قوله ( أطراف الأحاديث ) وحيا خفيا ورمزا حلوا "[٤٢] . ويضيف قائلا : " ألا ترى أنه يريد بأطرافها ما يتعاطاه المحبون، ويتفاوضه ذوو الصبابة المتيمون، من التعريض، والتلويح، والإيماء دون التصريح. وذلك أحلى وأدمث، وأغزل وأنسب، من أن يكون مشافهة وكشفا، ومصارحة و جهرا "[٤٣] . وقد استند في تأويله هذا على التراث الشعري ، فكانت قراءته من قبيل تأويل الشعر بالشعر ، حيث أشار إلى عدد من الأبيات التي طرقت هذا المعنى[٤٤] .

أما عبد القاهر فقد جاء تأويله مختلفا حيث ربط العبارة بالسياق الزمني والسياق الثقافي العام ، فذهب إلى أن الشاعر " دل بلفظة ( الأطراف ) على الصفة التي يختصّ بها الرفاق في السفر، من التصرف في فنون القول وشجون الحديث . أو ما

هو عادة المتظرفين، من الإشارة والتلويح والرمز والإيماء، وأنبأ بذلك عن طيب النفوس، وقوة النشاط ، وفضل الاغتباط ، كما توجبه ألفة الأصحاب وأنسة الأحباب، وكما يليق بحال من وفق لقضاء العبادة الشريفة، ورجا حسنالإياب، وتنسم روائح الأحبة والأوطان ، واستماع التهاني التحايا من الخلان والإخوان"[٤٥] .

فمن الواضح هنا أن عبد القاهر استند في تأويله لعبارة " أطراف الأحاديث " على السياق الزمني الذي أنتج الأبيات إذ هي تتعلق بقضاء عبادة شريفة كما ذكر، كما استند على السياق الثقافي العام حيث تتعلق هذه العبارة بصفة يختص بها الرفاق في السفر، وعادة المتظرفين، وما توجبه ألفة الأصحاب وأنسة الأحباب.

٢ ـ نموذج ثان يتعلق بالقراءة وفقا لتصنيف علوم البلاغة :

فيما لو طبقنا طريقة الهرم المقلوب في ترتيب علوم البلاغة لقراءة نص شعري فسيكون من المفيد انتخاب شاعر مثل أبي تمام لهذا الغرض لوفرة البديع في شعره ، وسأقف هنا مع مطلع بائيته الشهيرة[٤٦] :

السيف أصدق أنباءً من الكتب　　في حده الحد بين الجد و اللعب

بيض الصفائح لا سود الصحائف　　في متونهن جلاء الشك و الريب

حيث تبدو للوهلة الأولى أن ما يميز هذا المطلع هو إيقاعه المكثف المتمثل في استثمار التصريع بين " الكتب – اللعب " والجناس بين " حده الحد " و" الحد و الجد "، و"الصفائح والصحائف" فإذا ما أنعمنا النظر قليلا انتقلنا من الجانب السمعي إلى الجانب البصري حيث تبدو الألوان المتضادة بين " بيض – سود "، أما الجانب الفكري المتعلق بالإسناد و التقديم و بقية مباحث المعاني فإنه في حاجة إلى إنعام نظر للوصول إلى سر تقديم الجار و المجرور " في حده" على "الحد" ، وما اختار الشاعر "أنباء" دون "أخبار" وسر التنكير، وما إلى ذلك من لطائف تتعلق بالنظم و التركيب، و هكذا يمكن النظر إلى أي نص شعري و تحليله بما يتناغم مع مهارات وقدرات الطلاب بغية تدريجهم في التلقي بدءا بالأقرب إلى حواسهم وقدراتهم ، واستجابة للفطرة الإنسانية في النمو والترقي .

**خلاصة أخيرة:**

نخلص مما سبق أن القراءة فعل معرفي، ذو بعد تكويني، له جانب مهاري ثقافي، وآخر فكري نقدي، وأن النظر إليها باعتبارها نشاطا مهاريا ثقافيا يتطلب قارئا متعلما في البدء يتمتع بمهارات قرائية تتناسب مع تلقيه الأول للكتاب، أو النص المقروء، سواء كان نصا أدبيا، أو نصا معرفيا بشكل عام، ليترقى بعد ذلك إلى مستوى القارئ المعلم وله مهاراته الخاصة، فالقارئ الناقد الذي يتمتع بمهارات بحثية و نقدية خاصة.

أما الجانب الفكري النقدي فيتعلق بالتفاعل مع النص المقروء وفقا لمستويات القراءة، وهي ثلاثة مستويات: قراءة فهم، وقراءة تذوق، وقراءة تأويل، وهذه المستويات الثلاثة تتناسب مع مستويات النص وفقا للتصنيف البلاغي، إذ تتجه قراءة الفهم إلى "أصل المعنى"، فيما تتجه قراءة التذوق إلى "تشكيل البديع" في مستواه السطحي، وإلى "التصوير البياني" في مستواه الأول من صور مبنية على التشبيه والمجاز المرسل، في حين تتجه قراءة التأويل إلى "أسرار التراكيب" و"دلالة الصور" المبنية على التمثيل والاستعارة والكناية مع تأويل الرموز والصور الكلية في بناء النص في صورته النهائية.

ولا شك أن هذا التصور لمستويات القراءة يجعل النص الأدبي في المقابل ذا دوائر متداخلة: دائرة خارجية وهي "دائرة علم البديع" و دائرة وسطى وهي "دائرة علم البيان" ودائرة عميقة وهي "دائرة علم المعاني"، و"نواة" يتشكل منها النص هي نواة "أصل المعنى"، بحيث تتفرع هذه النواة بدءا بالجملة النحوية كما في "عبد الله قائم" ثم تكبر، حسب حاجة المتلقي ، لتصبح "إن عبد الله قائم"، ثم تكبر أكثر لتصبح "إن عبد الله لقائم"، وهكذا تتسع الجملة/ الأصل، داخل النص الأدبي حتى تتفرع في نسيج متشابك من دوائر علوم البلاغة الثلاثة بدءا بمراعاة مقتضى الحال في التراكيب، ومرورا بوضوح الدلالة في الصور المختلفة للمعنى الواحد ، وانتهاء بتحسين الوجوه بعد مراعاة مقتضى الحال ووضوح الدلالة ، وعلى هذا الأساس يحسن تلقي النص بدءا بدائرة البديع في مستواه السمعي والبصري، فدائرة البيان في مستوى الصورة المفردة ثم الصورة المركبة، فدائرة علم المعاني في مستواه التركيبي الذي يشمل الصور المجازية والمحسنات البديعية.

## الهوامش

(١) أخرجه البخاري (٣) و اللفظ له ، ومسلم (١٦٠) ، نقلا عن (هذا رسول الله . نصوص موثقة جامعة في بيان شخصيته ورسالته صلى الله عليه و سلم، راجعه و صححه جمع من قيادات علماء المسلمين. مؤسسة الإسلام اليوم. الطبعة الأولى ١٤٣٢هـ- ٢٠١١م : ص ٣٦)

(٢) ينظر: التحرير والتنوير. سماحة الأستاذ الإمام محمد الطاهر ابن عاشور. دار سحنون للنشر والتوزيع – تونس: م ١٥ ج ٣٠/ ٤٣٣

(٣) التحرير و التنوير: م ١٥ ج ٣٠ / ٤٣٨.

(٤) البيان والتبيين. للجاحظ، تحقيق عبد السلام هارون، مكتبة الخانجي: ١ / ٧٦.

(٥) نفسه.

(٦) كتاب الحيوان ، للجاحظ ، تحقيق د. إيمان الشيخ محمد وغريد الشيخ محمد، دار الكتاب العربي ، بيروت - لبنان ١٤٢٩هـ- ٢٠٠٨م : ١ / ٣٧.

(٧) نفسه.

(٨) تاريخ القراءة . ألبرتو مانغويل، ترجمة سامي شمعون ، دار الساقي، الطبعة الأولى ٢٠٠١م : ص ١٧ .

(٩) تاريخ القراءة . ص ١٩ بتصرف يسير جدا .

(١٠) تاريخ القراءة : ص ١٨

(١١) نفسه.

(١٢) المهارات اللغوية. مدخل إلى خصائص اللغة العربية وفنونها. الدكتور محمد صالح الشنطي . دار الأندلس للنشر والتوزيع، حائل، الطبعة الخامسة ١٤٢٤ هـ- ٢٠٠٣ م : ١٦٥-١٦٦

(١٣) التحرير والتنوير: م ١٥ ج ٣٠ / ٤٣٩

(١٤) الشفاهية والكتابية ، والتر أونج ، ترجمة حسن البنا عز الدين، سلسلة عالم المعرفة رقم (١٨٢) ، المجلس الوطني للثقافة و الفنون و الآداب ، الكويت . فبراير – ١٩٩٨م : ص ٥٥

(١٥) التحرير و التنوير : م ١٥ ج ٣٠ / ٤٤١

(١٦) نفسه

(١٧) الخصائص: ص ١٨٦.

(١٨) ينظر: دلائل الإعجاز ص ٣٣٠ ، و ص ٣٥١ ، وص ٣٥٤ .

(١٩) أردت بمفهوم الإنتاج في هذا السياق إنتاج نص آخر ينبثق من النص الأصلي، وهو ما يجعل من عملية القراءة منتجة للمعرفة، في حين تجاوزت الإنتاج بمفهومه النقدي الحديث وهو ما يراد به توليد الدلالة وإنتاج المعاني في النص من قبل القارئ، وأرى أن هذا الأخير توازيه مهارة الاستنباط التي هي، من وجهة نظري، تستنبط الدلالات المخبوءة وراء النص، إما من طريق التأويل بصرف اللفظ عن ظاهره، أو من طريق ما يدل عليه مفهوم اللفظ، كما في دلالة إنما " إذا كان لا يراد بالكلام بعدها نفس معناه ، ولكن التعريض بأمر هو مقتضاه" ( دلائل الإعجاز: ص ٣٥٤ ) .

(٢٠) دلائل الإعجاز: ص ٣١٥

(٢١) ينظر: التلخيص ص ٤٢ – ٤٣

(٢٢) تاريخ القراءة: ص ٥٢

(٢٣) ينظر مثلا: مفتاح العلوم للسكاكي، بيروت، دار الكتب العلمية: ص ٧٣ ، والإيضاح في علوم البلاغة للخطيب القزويني، تحقيق عبد المنعم خفاجي، الطبعة الخامسة ، دار الكتب اللبناني، بيروت ١٩٨٠م : ص ١٢.

(٢٤) ينظر: القراءة وتوليد الدلالة: ص ٨١ - ٨٣

(٢٥) السابق: ص ٨٨

(٢٦) قراءة ثانية. نصوص. د عزت بن عبد المجيد خطاب، كتاب الرياض، مطابع مؤسسة اليمامة الصحفية. ص ١٥

(٢٧) التلخيص في علوم البلاغة للقزويني ضبطه وشرحه: عبد الرحمن البرقوقي، دار الكتاب العربي. ص ٣٤٧

(٢٨) التأويل عند البلاغيين: معاييره، إيجابياته، سلبياته عند القدماء والمحدثين، د. محمد إبراهيم شادي، ندوة البلاغة العربية: سؤال الهوية و آفاق المنهج، إشراف ومتابعة د. عبد الله إبراهيم الزهراني، الطبعة الأولى ١٤٣٢هـ - ٢٠١٢م: ص ٢٤٠ ).

(٢٩) القراءة وتوليد الدلالة حميد لحمداني، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء المغرب، ط الأولى ٢٠٠٣م.ص ١١٣.

(٣٠) دلائل الإعجاز: ص ٢٦٣

(٣١) السابق: ص ٣٧

(٣٢) السابق: ص ٢٣٥ - ٢٣٦

(٣٣) التلخيص في علوم البلاغة ، ص ٣٤٧

(٣٤) ينظر: أسرار البلاغة للإمام عبد القاهر الجرجاني، قراءه وعلق عليه: محمود شاكر، الناشر مطبعة المدني بالقاهرة ومطبعة المدني بجدة.ط الأولى ١٤١٢هـ ١٩٩١م.

(٣٥) تفسير الرازي، قدم له فضيلة الشيخ خليل محيي الدين الميس، دار الفكر ، بيروت - لبنان ١٤٢٣هـ - ٢٠٠٢م . م١٠ / ج ٢٠ / ٢١٢

(٣٦) ينظر: دلائل الإعجاز ص ٢٩٩

(٣٧) السابق ص ١٠٠

(٣٨) الأبيات هي :

| | |
|---|---|
| ولما قضينا من منى كل حاجة | ومسح بالاركان من هو ماسح |
| وشدت على دهم المهارى رحالنا | ولم ينظر الغادي الذي هو رائح |
| أخذنا بأطراف الأحاديث بيننا | وسالت باعناق المطي الأباطح |

ينظر: الشعر والشعراء ١/ ٦٧، والخصائص ص ١٨٨، وأسرار البلاغة ص ٢١ .

(٣٩) الشعر والشعراء لابن قتيبة، تحقيق وشرح أحمد محمد شاكر دار الحديث، القاهرة، ١٤٢٧هـ - ٢٠٠٦م ١/ ٦٧ - ٦٨ .

(٤٠) ينظر تحليل ابن جني كاملا في كتابه : الخصائص ، ص ١٨٨ - ١٨٩ ، تحقيق محمد علي النجار عالم الكتب ، بيروت - لبنان ، الطبعة الأولى ١٤٢٧هـ - ٢٠٠٦ م .

(٤١) أسرار البلاغة لأبي بكر عبد القاهر بن عبد الرحمن الجرجاني، تحقيق محمود شاكر ، مطبعة المدني بالقاهرة ، ومطبعة المدني بجدة. الطبعة الأولى ١٤١٢ هـ - ١٩٩١م : ص ٢٣. وينظر (قيمة التحليل و القراءة في ص ٢٢ - ٢٣

(٤٢) الخصائص : ١٨٩

(٤٣) نفسه.

(٤٤) ينظر الأبيات في: الخصائص ص ١٨٩ .

(٤٥) أسرار البلاغة : ص ٢٢ - ٢٣ .

(٤٦) ينظر: ديوان أبي تمام، تحقيق د. درويش الجويدي، المكتبة العصرية، صيدا - بيروت، الطبعة الأولى ٢٠١١م - ١٤٣٢هـ: ١ / ٢٩

## المصادر والمراجع


- أسرار البلاغة لأبي بكر عبد القاهر بن عبد الرحمن الجرجاني، تحقيق محمود شاكر، مطبعة المدني بالقاهرة، ومطبعة المدني بجدة، الطبعة الأولى ١٤١٢ هـ ١٩٩١م
- الإيضاح في علوم البلاغة للخطيب القزويني، تحقيق عبد المنعم خفاجي، الطبعة الخامسة، دار الكتب اللبناني، بيروت ١٩٨٠م.
- البيان والتبيين ، للجاحظ، تحقيق عبد السلام هارون، مكتبة الخانجي.
- تاريخ القراءة ، البرتو مانغويل ، ترجمة سامي شمعون ، دار الساقي ، الطبعة الأولى ٢٠٠١م .
- التحرير والتنوير، سماحة الأستاذ الإمام محمد الطاهر ابن عاشور، دار سحنون للنشر والتوزيع – تونس.
- تفسير الرازي، قدم له فضيلة الشيخ خليل محيي الدين الميس، دار الفكر ، بيروت – لبنان ١٤٢٣هـ ٢٠٠٢م .
- التلخيص في علوم البلاغة للقزويني ضبطه وشرحه: عبد الرحمن البرقوقي، دار الكتاب العربي.
- الخصائص لابن جني، تحقيق محمد علي النجار، عالم الكتب ، بيروت – لبنان، الطبعة الأولى ١٤٢٧هـ ٢٠٠٦ م
- دلائل الإعجاز، أبو بكر عبد الرحمن الجرجاني، قراءه وعلق عليه محمود محمد شاكر، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط الخامسة، ١٤٢٤هـ ٢٠٠٤م.
- ديوان أبي تمام، تحقيق د. درويش الجويدي، المكتبة العصرية، صيدا – بيروت، الطبعة الأولى ٢٠١١م – ١٤٣٢هـ
- الشعر والشعراء لابن قتيبة، تحقيق وشرح أحمد محمد شاكر دار الحديث، القاهرة، ١٤٢٧هـ ٢٠٠٦م
- الشفاهية والكتابية، والتر أونج ، ترجمة حسن البنا عز الدين، سلسلة عالم المعرفة رقم ( ١٨٢ )، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب ، الكويت، فبراير – ١٩٩٨م.
- قراءة ثانية، نصوص، د.عزت بن عبد المجيد خطاب، كتاب الرياض، مطابع مؤسسة اليمامة الصحفية.
- القراءة وتوليد الدلالة للدكتور: حميد لحمداني، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء المغرب، ط الأولى، ٢٠٠٣م.
- كتاب الحيوان، للجاحظ، تحقيق د. إيمان الشيخ محمد وعديد الشيخ محمد، دار الكتاب العربي، بيروت – لبنان ١٤٢٩هـ ٢٠٠٨م
- مفتاح العلوم للسكاكي، بيروت، دار الكتب العلمية.
- المهارات اللغوية، مدخل الى خصائص اللغة العربية وفنونها، الدكتور محمد صالح الشطي، دار الأندلس للنشر والتوزيع، حائل، الطبعة الخامسة ١٤٢٤ هـ ٢٠٠٣ م
- ندوة البلاغة العربية: سؤال الهوية وأفاق المنهج ، اشراف ومتابعة د. عبد الله إبراهيم الزهراني، الطبعة الأولى ١٤٣٣هـ ٢٠١٢م.
- هذا رسول الله، نصوص موثقة جامعة في بيان شخصيته ورسالته صلى الله عليه وسلم، راجعه و صححه جمع من قيادات علماء المسلمين ،مؤسسة الإسلام اليوم، الطبعة الأولى ١٤٣٢هـ ٢٠١١م : ص ٣٦